

عمارة المساجد

إن البحث في فن العمارة الإسلامية بشكل عام، يقود إلى التركيز والبحث في بناء المساجد بشكل خاص، لأنها المباني الأولى التي أخذت الطابع الإسلامي. يعتبر بناء المسجد الأول في المدينة المنورة ومسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى، من أقدم المباني في العالمين العربي والإسلامي.

المسجد الاول:

أدى ظهور الدين الإسلامي إلى تغيير كبير في معظم المفاهيم الفكرية والاجتماعية، وبالتالي أدى إلى ظهور أنماط معمارية، متوافقة مع طبيعة القيم والمفاهيم التي أتى بها الدين الجديد. وبما أن الصلاة هي إحدى الأركان الخمسة للدين الإسلامي، كانت تؤدي في الفترة الأولى في أي مكان، وخاصة في عهد نشر الدعوة في مكة المكرمة. لكن بعد هجرة الرسول الكريم (ص) إلى المدينة المنورة، تطلبت صلاة الجماعة إقامة مكان للصلاة فكان الجامع "المسجد" الذي يجتمع فيه المؤمنون لإقامة الصلاة، وأريد في إقامة البناء الأول للجامع وقاية المصلين من حرارة الشمس أو هطول الأمطار، كما قصد مراعاة نظام الصفوف والاتجاه إلى الكعبة المشرفة في مكة المكرمة.

تعتبر السهولة والبساطة في أداء فريضة الصلاة في الدين الإسلامي، سببا أساسيا في وضع تخطيط بعيد عن التعقيد والتكلف لبناء المسجد، وفي توزيع وحداته المعمارية أو في أسلوب بنائه. بذلك كان المسجد النبوي الشريف (مسجد قباء)، الذي بني في عهد الرسول الكريم

(ص) في المدينة المنورة، نواة لبناء المساجد في جميع أنحاء البلاد العربية والإسلامية في كافة العصور والمراحل.

يمثل بناء المسجد الأول البساطة والتقشف، إذ كان مربع المسقط لا يزيد طول ضلعه عن 70/ مترا تقريبا، ولا يتجاوز ارتفاع الجدران المبنية باللبن عن خمسة أمتار، والجانب الشمالي الغربي عبارة عن رواق ذي سقف تحمله جذوع النخيل، والسقف نفسه كان من سعف النخيل والطين، وبنيت في الجانب الجنوبي الشرقي تسع غرف كمسكن للنبي الكريم، وكان للمسجد ثلاثة أبواب متعامدة، تؤدي إلى الصحن المكشوف الذي يتوسط المسجد.

أضاف الرسول الكريم منبرا مكونا من ثلاث درجات في السنة السابعة للهجرة، وبعد وفاة النبي (ص) دفن في المسجد، عمده الخليفة عمر بن الخطاب إلى توسيع المسجد، فأصبحت أبعاده 98-84/ م تقريبا، واستعملت فيه أعمدة من الخشب وأصبح له ستة أبواب.

وجرى تجديد آخر في عهد عثمان بن عفان، وأصبح أكثر اتساعا واستعيض عن الأعمدة الخشبية بأعمدة حجرية، وبنيت الجدران بالحجارة بدلا من اللبن. لكن أهم التعديلات هي التي قام بها الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك في سنة 712/ ميلادية، بحيث أصبح المسجد ذا صحن وأروقة، وأصبح النموذج الأساسي في بناء المساجد في العصور الإسلامية التالية.

وبناء المسجد الأول يؤكد أن المسلمين لم يقتبسوا تخطيطهم من المعابد الوثنية أو الكنائس البيزنطية أو الكنائس اليهودية، بل كان تصميم المسجد متفرد بذاته، وأصبح المسجد يتكون بشكل عام من قاعة الصلاة تضم المحراب والمنبر، بالإضافة إلى الصحن ومكان الوضوء وأخيرا المئذنة.

ظل المسجد النبوي نموذجا متتبعا في بناء المساجد في شرق وغرب العالم الإسلامي، مع إدخال بعض التعديلات أو الاختلافات الجزئية وخاصة من ناحية عدد الأروقة، وفي اتجاه الأعمدة والعضادات التي تفصل بين الأروقة.

يمكن القول أن كل مسجد كان يتفق مع المساجد الأخرى في المميزات الرئيسية ويختلف في التفاصيل، فكان كل مسجد منها يتميز بشخصية مستقلة، مما يدل على عدم وقوع المسلمين تحت تأثير معماري خاص يأخذون منه أشكال مساجدهم.

من أشهر المساجد التي شيدت في فجر الإسلام **جامع البصرة**، الذي بناه عقبة بن غزوان بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب في عام 14هـ- 635م، وأعيد بناءه في عهد أبي موسى

الأشعري عام 16هـ- 637م، وجامع الكوفة الذي تذكر المصادر التاريخية بأن تحديد مساحته، اعتمد على إلقاء سهم في الجهات الأربع وأحيط بخندق بدلا من الجدران. ثم جده زياد ابن أبيه عام 50هـ- 670م.

أما في مصر، فقد شيد عمرو بن العاص في مدينة الفسطاط مسجده في عام 21هـ- 642م/ وكانت له ستة أبواب، بابان من كل جانب عدا جانب القبلة، ولم يكن له فناء داخلي. لقد أدخلت عليه تعديلات في عهد مسلمة بن مخلد والي معاوية في عام 53هـ- 673م، ثم أعاد بناؤه الوالي قره بن شريك في عام 92هـ- 711م، وأضاف إليه المحراب المجوف وصح اتجاه القبلة.

العمارة في العصر الأموي

لقد أدى انتقال مركز الخلافة إلى بلاد الشام واتخاذ مدينة دمشق عاصمة للدولة الأموية، إلى الاحتكاك بالفنون المحلية التي كانت سائدة في بلاد الشام، تلك الفنون التي كانت نتيجة لجهود المعماربيين السوريين عبر العصور.

كما أن اتساع رقعة الدولة الإسلامية واستتباب الأمن في كل الولايات الإسلامية، دفع بالخلفاء المسلمين إلى الاهتمام بالعمارة والفنون.

فقد اهتم الأمويون في البداية بتجديد بعض المساجد التي شيدت في عصر الرسول (ص) والخلفاء الراشدين، ومن ثم بدؤوا بالاهتمام ببناء المساجد والقصور، وازدهرت العمارة الإسلامية في العصر الأموي. استطاع المعمار العربي في هذه الفترة أن يضع تصاميم ومخططات رائعة، مازالت تشهد بقاياها على مدى تقدم فن العمارة في العصر الأموي ومن أهم وأشهر المساجد التي شيدت في العصر الأموي: مسجد قبة الصخرة، المسجد الأقصى، والمسجد الأموي في كل من دمشق وحلب، إضافة إلى بناء العديد من القصور في بلاد الشام.

مسجد قبة الصخرة في القدس:

يعتبر بناء قبة الصخرة من أروع المخلفات المعمارية التي شيدها الأمويون، وعلى الأغلب أن الخليفة عبد الملك بن مروان الذي أمر ببنائها، فقد أراد إضفاء طابع التعظيم للصخرة المقدسة والحفاظ عليها فكان بناؤها عام 72هـ- 691م، وهي تعبر عن القدرة المعمارية

للمهندس الذي شيدها. فتصميم القبة يلائم الطواف حول الصخرة المقدسة، أما البناء فهو بناء حجري مئمن الشكل، مؤلف من مئمن خارجي من الجدران، يليه مئمن داخلي من الأعمدة والأكتاف. داخل هذا المئمن دائرة من الأعمدة والأكتاف أيضا، وفوق الدائرة قبة مرفوعة على عنق أسطواني مضع فيه 16 نافذة، والقبة مصنوعة من الخشب تغطيها من الخارج طبقة من الرصاص، ويبلغ طول ضلع المئمن الخارجي /21م/ وارتفاعه /9م/ تقريبا، ويوجد في الجزء العلوي من كل ضلع في هذا المئمن نوافذ، ليصل منها النور إلى داخل البناء وفي الجوانب المقابلة للجهات الأصلية الأربعة من المئمن أربعة أبواب متعامدة.

يمر الناس حول الصخرة التي يبلغ طولها /18م/ وعرضها /13م/ وارتفاعها عن الأرض /1.5م/، من خلال الأروقة الدائرية حول المئمنين الداخليين، والأقواس المستعملة في البناء نصف دائرية، وكذلك أقواس فتحات النوافذ، أما بالنسبة للأعمدة فقد كانت مستعملة سابقا في بعض المباني التي تعود إلى العصر الروماني، لذلك نلاحظ اختلاف أبعادها وتيجانها، وقد استخدمت الروابط الخشبية لربط تيجان الأعمدة ببعضها البعض من أجل زيادة قوة تحمل العقود. لقد حرص الفنانون على إغناء قبة الصخرة بالزخارف النباتية ورسوم النجوم والأهلة، وكان الجانب الخارجي من جدران البناء مغطى بالفسيفساء، التي استبدل بها في عهد السلطان سليمان القانوني عام /1545م/ ألواح من القاشاني. يزين القبة من الداخل شريط من الكتابة الكوفية المذهبة على أرضية زرقاء، يبلغ طول الشريط /24م/، ويضم بعض الآيات القرآنية واسم مشيد البناء وتاريخ الإنشاء. أراد الخليفة المأمون في عصر الدولة العباسية أن يدخل بعض الاصطلاحات على القبة، ولعل الفنان أراد تعديل الكتابة لكن التاريخ بقي لم يتغير.

يعتبر مسجد قبة الصخرة من الروائع المعمارية التي تركها لنا المعمار يون العرب والمسلمين، ولا ينتقص من قيمتها أو روعتها استفادة المعمار يين من تجارب سالفهم من معماري بلاد الشام. وما يزيد في روعة مسجد قبة الصخرة أنه من أقدم المنشآت الأموية بل الإسلامية، أنه مازال محتفظا بلامحه الأصلية، رغم الإضافات والإصلاحات التي أدخلت عليه في عصور مختلفة، كما أنه المسجد الوحيد من المساجد القديمة الذي يأخذ شكل مئمن، ومرد ذلك -غالبا- التأثير المحلي لمباني دينية قديمة مثل كاتدرائية بصرى التي بنيت في بداية القرن السادس الميلادي. على أية حال لم يكن تصميمه مشابها تماما لتصاميم قبله، بل اتصف بالتجديد والابتكار وملائمة الغرض الذي شيد من أجله، وهذا له أهمية كبيرة ويدل على أن العرب المسلمين قد بدؤوا بالابتكار والإبداع في مجال العمارة، الذي سرعيا ما ظهرت فيه بذور الطراز العربي الإسلامي.

المسجد الأقصى:

يحتل المسجد الأقصى المكانة الثانية بعد الكعبة المشرفة بالتقديس بالنسبة للمسلمين، والبناء الحالي للمسجد الأقصى جدد على أساس شكل المسجد الأصلي الذي جدده الوليد بن عبد الملك.

كان المسقط الأفقي الأصلي للمسجد في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، مستطيل طوله 80/م وعرضه 55/م، ويتألف من سبعة أروقة تشكلها عدد من العقود تتعامد مع جدار القبليّة، ويتكون كل رواق من إحدى عشرة عقداً، فيما عدا الرواق الأوسط فهو أعرض من الأروقة الأخرى، ويبلغ ضعفها من حيث الاتساع 11.80/م. صنع منبر المسجد الأقصى في حلب ونقله صلاح الدين الأيوبي إلى المسجد الأقصى.

ولا يسعنا إلا أن نضع وصف المؤرخ المقدسي للمسجد الأقصى حيث يقول: "كان له 26/ بابا أطلق على الباب المواجه للمحراب باب النحاس الأعظم، حيث كان مغطى بصفائح من النحاس الأصفر، وإلى يمين هذا الباب سبعة أبواب كبيرة أوسطها مغطى بالنحاس الأصفر كذلك الحال في أبواب الجانب الأيسر، أما أبواب القسم الشرقي فعددها 11/ بابا غير مزخرفة، وثمة أعمدة وأسطوانات تحمل الأروقة، وأروقة أخرى ذات أبنية من الحجر، وسط الحرم مسقف جمالوني تعلوه قبة جميلة، ويكسو السقف ألواح من الرصاص".

د. عبير شدود